قراءة في حقيقة الفتح الإسلامي ومعاملة الولاة لأهل بلاد المغرب

مصطفى داودي
أستاذ محاضر ب
جامعة زيان عاشور الجلفة

الملخص بالعربية:

محاولة فهم التطور التاريخي لبلاد المغرب منذ بداية الفتح الإسلامي ، لا تفهم فهما سليما ، إلاّ إذا كانت القراءة لذلك الفتح ومعاملة رجاله لأهل هذه البلاد سليمة ، حتى لا ينظر إلى صورة الفتح لهذه البلاد وكأنّه سيف مسلّط على الرقاب مثلما يريد أهل الاستشراق تكريسه وهم يتكلمون عن حقيقة تمكّن الإسلام من القلوب ، أو من خلال تلك القراءات العربية التي كانت أحكامها مطلقة في الحكم على قادة الفتح والولاة ، صحيح أن هناك أخطاء فادحة وقع فيها بعض قادة الفتح ورجاله وكذا بعض الولاة والأمراء ، لكن ينبغي أن نضع تلك الأخطاء في حيّزها الضيق و المحدود لأنها لو كانت تمثل صورة الفتح الحقيقية لجرى له مثلما ما جرى للرومان والوندال والبيزنطيين ، فالمسألة إذن هي أخطاء وليست سياسة واستراتيجية ، موجهة لأهل هذه البلاد بعينهم وإننا حينما نستقرئ المصادر التاريخية نجد في نفس الفترة قد وقعت وقائع مماثلة في بلاد المشرق والأندلس ، وفي مقابل صورة ولاة أخطئوا، توجد هناك صورة أخرى لولاة أحسنوا السيرة ، وجذبوا لهم أهل هذه البلاد إسلاما وإخلاصا.

Abstract

The attempt to understand the historical development of the Arab Maghreb since the early Islamic conquests, can't reach a well understanding unless the reading of that conquest and the handling the conquerors behavior towards the local people are pure. This is in order to not seeing this land conquest image as a sword on the neck as the Orientalists want it to be true, when they talk about the fact that Islam was able to win hearts, or through those Arabic readings, which were absolute provisions on the rulers of the rulers and governors. Certainly, there were fatal errors occurred by some conquest leaders, some conquerors, some rulers and princes, but we must put these errors in their narrow and limited space. Because if it was the conquest real image, it traced what happened to Romans, Vandal and Byzantines. The issue then is merely mistakes and not a policy or a strategy addressed to this particular land's people. Furthermore, when we induce the historical sources we find that similar events took place in the East and Al-Andalus in the same period, in contrast to the bad image of the rulers who had sinned, there is a good image of the governors who behaved honorably, and had attracted the local people to Islam and sincerity.

إن استجلاء واقع الحياة في بلاد المغرب الإسلامي من مختلف جوانبها ، ومحاولة فهم التطور التاريخي لها وأيام الدول فيها ، لا تفهم فهما سليما ، إلاّ إذا كانت القراءة للفتح الإسلامي ومعاملة رجاله لأهل هذه البلاد سليمة ، حتى لا ينظر إلى صورة الفتح لهذه البلاد وكأنّه سيف مسلّط على الرقاب مثلما يريد أهل الاستشراق تكريسه وهم يتكلمون عنه ، وفي ذلك أشار (أنجلوا غريلي) بأن أهل المغرب مؤسلمون أكثر مما هم مسلمون ومعتقدون حقيقيون لأن العرب أجبروهم على اعتناق الإسلام بالقوة[1].

ومما غاض أهل الاستشراق ، هو سرعة انتشار الإسلام في هذه البلاد ، وتقبّل أهله له ، منذ القرن الأول الهجري ـ لا سيما في عهد الوالي اسماعيل بن عبيد الله ـ مما استرعى انتباه المستشرقين فأصبح من القضايا الهامة والجديرة بالمناقشة والبحث ، ولقد عبر كل فرد من أولئك عن تعليله لهذه السرعة والتقبل برأيه الشخصي ، فمنهم من يرى أن مرد ذلك إلى تعصب المسلمين ووسائل الضغط والاكراه التي باشروها ضد أبناء الشعوب المفتوحة .

ومن أمثال هؤلاء المستشرق (تيوفانيس) الذي يقول: (حرّم عمر بن عبد العزيز ، النبيذ في المدن ، وأكره النصارى على الدخول في الإسلام ، وكان من فعل ذلك رفع عنهم الجزية ، أما من لم يفعل فإنه قتلهم[2] ، وكذلك المستشرق (ديل diehl) الذي يزعم أن عمر بن عبد العزيز ، أمر الكاثوليك في أفريقية أن يدخلوا في الإسلام أو أن يرحلوا عن البلاد[3] ، لكن الحقائق التاريخية علّمت الجميع بأن السيف وحده لا يخضع الشعوب ولا يبني مبادئ وقيم في النفوس ، والأمازيغ طيلة تاريخهم لطالما استبسلوا في الدفاع عن أرضهم وقارعو في ذلك الرومان والوندال والبيزنطيين[4] واشتدوا في وجه الفتح الإسلامي حتى تقبّلوه وحملوا رايته وأتموا الفتح ، مما يوحي بأن هناك عملا أعمق من السيف لازم تلك الفتوحات ، انتقلت عبره نفوس هذه البلاد من العناد والاستبسال والشدة في المقاومة إلى الخضوع لما جاء به جيش الفتح ، بل وتحمّل عبئ إتمام ذلك الفتح ، ويتمثل هذا العامل في تحقيق رضا الله من خلال تبليغ رسالته للخلق ، ومما يؤكد ذلك خطبة عقبة بن نافع(1ق.هـ- 63هـ) إلى جنوده حينما قابله البربر ومن حالفهم من الروم في منطقة تاهرت لمّا كان في حملته الشهيرة والتي وقف فيها على بحر المحيط بالمغرب الأقصى حيث قال لجنوده : (**... وأنتم اليوم في دار غربة ، وإنما بايعتم اليوم رب العالمين ، وقد نظر إليكم في مكانكم هذا ، ولم تبلغوا هذه البلاد إلاّ طلبا لرضاه ، وإعزازا لدينه فابشروا فكلما كثر العدو كان أخزى لهم وأذل ..**)[5]. وقد ذكر موسى لقبال رحمه الله بأنه بعد المعركة الفاصلة مع الكاهنة أصبحت مهمة نشر الإسلام في بلاد المغرب ليست مقصورة على العرب فقط بل أصبح يشاركهم فيها أهل البلاد ، ومردّ كل ذلك إلى سياسة التسوية بين الأمازيغ والعرب في الفيء ، واستمالتهم وإشراكهم في تحمل مسؤولية القيادة ، والعمل على نشر الإسلام بين ذويهم[6].

كل هذه العوامل رسّخت في ذهن أهل هذه البلاد بأنهم بصدد تقارب بشري جديد بعيد عن المادية القاتلة ، وهو ما جعلهم أصلا في بناء مجتمع بلاد المغرب ، وأن السرّ في كل ذلك يعود إلى طابع و غاية الفتوحات التي لم تكن على النمط الذي جاء به الرومان والوندال والبيزنطيون ، الذين كانت غايتهم الاستيلاء على الأرض لكسب خيراتها واستعباد أهلها ، أما الفتح الإسلامي فكان تحركّه في الأساس إلى هذه البلاد أو غيرها ينطلق من منظور تأدية رسالة الله للخلق ، وأن هذه التأدية لن تلقى القبول إلاّ إذا كانت عبر أنبل الوسائل وأرقى معاملة ، وأنه بقدر النبل وصدق المعاملة يزداد التشرب والقبول والدوام لهذه الرسالة وهو ما كان مع قصة الإسلام في بلاد المغرب.

صحيح أن هناك أخطاء فادحة وقع فيها بعض قادة الفتح ورجاله وكذا بعض الولاة والأمراء ، وذلك في تعاملهم مع كثير من المسائل سواء ما تعلق بالجانب الاجتماعي أو بالجانب المالي ، لكن ينبغي أن نضع تلك الأخطاء في حيّزها الضيق و المحدود لأنها لو كانت تمثل صورة الفتح الحقيقية لجرى له مثلما ما جرى للرومان والوندال والبيزنطيين ولكن بتشرّب أهل هذه البلاد المقصد الحقيقي للفتح جعلهم يدركون بأن تلك الأخطاء ما هي إلاّ تصرفات لا منهج فتح ، وأنها مثلما وجدت في بلاد المغرب وجدت أيضا في بلاد المشرق ، لدرجة أن بعض الكتّاب بالغوا في الوصف حتى أنهم كانوا يعتبرون بأن السياسة المالية الأموية ومن بعدها العباسية كانت سياسة استنزافية لثروات بلاد المغرب[7].

بمثل هذه الأحكام المطلقة لا يمكن أن نجلّي حقيقة الفتح وتعامله مع أهل هذه البلاد ، حتى ولو أظهرت بعض مصادر تاريخ بلاد المغرب جانب من تلك المسائل والتي لو وضعت تحت دائرة تحقيق المنهج التاريخي لردّ الكثير منها ، أو عدّل من حيث المبالغة في الوصف ومن ذلك ما ذكره المالكي في سياق استعباد رجال الفتح لأهل هذه البلاد من أن حسّان بن النعمان رحل من بلاد المغرب ومعه خمسة وثلاثين ألف رأس من البربر[8] ، وكأنهم رؤوس من الأغنام تنقل هنا وهناك ، في مقابل ذلك نجد بأنه بعد معركته مع الكاهنة[9] سنة (82هـ) خاض معركة أخرى مع جنود الكاهنة الفارين والمدعّمين من قبل الروم ، ولمّا هزمهم ، وطلبوا منه الأمان اشترط عليهم الإسلام ، وأن يقدّموا من قبائلهم إثني عشر ألفا يكونون عونا للعرب ، وقدّم على كلّ ستة آلاف منهم ولدا من ابني الكاهنة ، و أرسلهم بثقة إلى مختلف النواحي ليؤدوا رسالة الفتح[10].

فإذا كان مبدأ هذا الفتح هو اشتراط الإسلام وطلب العون لإتمام نشره ، وإعطاء الثقة لأهل هذه البلاد للقيام بهذه المهمة ، فكيف نفقه ما جاء به المالكي من أنه كان يجرّ خمسة وثلاثون ألف رأس من البربر ؟ ! ، و المقصد هنا وإن كان المالكي لا يقصد الطرح الذي نحن بصدد مناقشته ، ولكن لم يكن دقيقا في توظيف مصطلح الجرّ الذي يحمل معاني الإذلال و الإساءة ، وأبلغ إشارة في ذلك قوله تعالى:(**وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ**)[11].

ومن ذلك أيضا ما ذكره ابن عذارى من أن يزيد بن المهلب سهر ليلة مع الأمير موسى بن نصير (19 . 98هـ)[12] فقال له : يا أبا عبد الرحمان حتى كم كنت تعتد أنت وأهل بيتك من الموالي والخدم ؟ أتكونون في ألف ؟ فقال : نعم ألف ألف إلاّ منقطع النفس[13] فهل يمكن أن نبني تحليلنا للفتح ورجاله بناء على مثل هذه الروايات ؟ !

حقيقة أن هناك بعض الأخطاء خاصة في عصر الولاة والتي تمثلت في سوء السيرة مع أهل هذه البلاد ، والتي دفعت في بعض الأحيان إلى قتل الوالي نفسه ، ومن هؤلاء يزيد بن أبي مسلم (ت 102هـ) كاتب الحجاج بن يوسف الثقفي ، والذي أراد تطبيق سياسة الحجاج المالية في افريقية ، حينما فرض الجزية على أهلها ، إضافة إلى قيامه بتمييز حرسه من الأمازيغ البتروذلك بكتابة أسمائهم وأوصافهم كحرّاس بالوشم على أيديهم ، وهو ما أحدث أثرا نفسيا لدي أهلها شعورا بالإساءة ، فتآمروا عليه وقتلوه ليلا في مسجد القيروان[14] ، وقد بيّن ذلك ابن عبد الحكم وابن عذارى في ذكرهما لقول يزيد بن أبي مسلم : (**إني رأيت أن أرسم اسم حرسي في أيديهم كما تصنع ملوك الروم بحرسها ، فأرسم في يمين الرجل اسمه ، وفي يسراه كلمة (حرسي) ، ليعرفوا**

بذلك من بين سائر الناس)[15]وبعد مقتله أخبروا الخليفة يزيد بن عبد الملك (71 ـ 105هـ) بقولهم : **(إنا لم نخلع أيدينا من الطاعة ولكن يزيد بن أبي مسلم سامنا ما لا يرضى الله به والمسلمون ، فقتلناه و أعدنا عاملك)**[16]،وهذا دليل على أن أهل بلاد المغرب أنفسهم لم يشكّوا قطّ في نية الخلافة تجاههم ، وكانوا دائما يأملون منها خيرا ، ولذلك كان سخط الأهالي على العمال ولم يتعدّاهم إلى الخلفاء ، وكان الأهالي يردّدون دائما : **(لا نخالف الأئمة (أي الخلفاء) بما تجني العمال)**[17].

فالكتابات الناقدة بصفة مطلقة لعصر الولاة الذين تتابعوا في حكم بلاد المغرب هي كتابات لم يتحقق لها التصور الشامل للوقائع وبعد النظر الذي يتيح فهم الحقائق بالقصد الذي يكابد فيه الباحث من أجل الوصول إلى غايته وهي الاقتراب من الحقيقة ما استطاع وأن تلك الكتابات كانت منطلقة من تفسير مادي بحت ومتجزئ ، وهو ما جعلها تفسر عصر بأكمله من خلال واقعة واحدة أو أكثر بقليل حملت الإساءة ، وإذا كان ذلك مقنعا بالنسبة لهم فلماذا بالمقابل لا يحكمون على العصر ذاته انطلاقا من وقائع قد تكون أكثر منها عددا وحملت الإيجاب لأهل هذه البلاد، فالمقصد الذي نريده أن يكون الباحث متّزنا في فهم الحقائق حتى يستطيع الاقتراب من حقيقتها ، وإن من نماذج تلك الكتابات التي رأينا ضرورة مناقشتها من أجل فهم حقيقة الكتابة التاريخية حول عصر قادة الفتح وولاة بلاد المغرب ما كتبه محمود عبد الرازق عن عصر الولاة في بلاد المغرب وأنه بالقدر الإيجابي الذي حملته كتاباته من إضافة في التأريخ لهذه البلاد إلاّ أن رؤيته في الحكم على الوقائع كانت مطلقة ولم تصل إلى تمام الشمولية في فهم الوقائع وبالتالي الحكم على عصر بأكمله انطلاقا من حوادث بعينها رغم وجود ما يقابلها من وقائع أيضا وفي بعض الأحيان لنفس الولاة ، حيث اعتبر بأنه لا مهمة للولاة إلاّ المنافسة في جمع الأموال إرضاء للخلافة من ناحية ، وكسبا للأنصار و إشباعا لنهمهم من ناحية أخرى ، فعكفوا على إرسال الحملات و الجيوش تضرب في أطراف المغرب أو تهاجم الجزر البحرية في البحر المتوسط بغية السلب والنهب ، فيزيد بن أبي مسلم غزا صقلية سنة 101هـ / 719م في وقت كان الموقف بالمغرب عصيبا ، وفي سنة 109هـ/ 727م غزا بشر بن صفوان نفس الجزيرة وأصاب منها سبيا كثيرا ، وغزا عبيد الله بن الحبحاب في بلاد السوس وأرض السودان لكنه لم يجن من وراء غزواته سوى مغانم الذهب و الفضة وسبايا البربر ، كما بعث بجنوده إلى جزيرة سردينا سنة 117هـ/736م فنهبوا وغنموا وعادوا ، ثم غزا صقلية وعادت حملته بالأموال والسبايا ، وفي كل تلك الجيوش كان البربر يشكّلون غالبية رجالها ، فكانوا أداة لخدمة أطماع الولاة[18]، ويبالغ في أحكامه المطلقة إلى اعتبار الظلم الاجتماعي الذي استشرى في بلاد المغرب كله من صنع الخلافة وعمّالها[19].

بهذه القراءة غاب دور مهم هو من صميم دور الولاة في الإسلام والمتعلق بتأدية رسالة الإسلام للناس ، وغابت معها مهمّة مقدسة موكلة بهم وهي الجهاد في سبيل الله ، ودور في حماية مكتسبات الإسلام من الأخطار المحدقة ، وأن عدم تحقيق الهدف من وراء تلك الحملات لظروف ما هو تحرك فاشل ما كان ينبغي أن يكون ، وأن العودة بالغنائم هو دليل سوء نية ، إذا كان الحكم على الولاة من هذا المنطلق فكيف نحكم على قادة الفتح الأوائل لبلاد المغرب قبل جعل القيروان قاعدة له ، وكانوا يشنّون حملات فتح و يعودون بالغنائم إلى مصر لعشرات السنين ؟ هل كان مقصدهم الغنائم والسبايا ؟ وهل كان ضم أهل هذه البلاد ضمن جيوش الإسلام مثلما كان في فتح الأندلس وغيرها هو من باب خدمة أطماع الولاة ؟ وكأنّ تحرك طارق بن زياد ومن تبعه من أهل هذه البلاد في قيادة جيوش الفتح و دعمها في استكمال رسالتها هو تحرك بغيروعي لأنه خدمة أطماع الوالي أو

الخليفة ؟ !فلو لم ينجح القائد موسى بن نصير و طارق بن زياد في فتح الأندلس هل سيحكم على موسى بن نصير بالمستعجل و المندفع في ظرف كانت فيه بلاد المغرب في وقت عصيب ، وأنه لم يجني إلاّ الغنائم و السبايا ؟ .

ليس بمثل هذه الأحكام المطلقة يمكن أن نستقرئ الواقع التاريخي لأن المنهج التاريخي علّمنا بأن الوصول إلى الحقيقة المطلقة لا يمكن أن يتحقق إلاّ اقترابا وبالتالي فإن الأحكام المطلقة لا يمكن أن تقود إلى ذلك الاقتراب ، صحيح أن هناك أخطاء فادحة وقع فيها بعض الولاة وقد نالوا جزاءهم من ورائها ولكن لم يقم كل الولاة بذلك وأن الفيصل في ذلك هو حكم أهل هذه البلاد على سير الولاة والذين رأيناهم يردّدون : (لا نخالف الأئمة (أي الخلفاء) بما تجني العمال)[20]، أو بما أخبروا به الخليفة يزيد بن عبد الملك بقولهم : **(إنا لم نخلع أيدينا من الطاعة ولكن يزيد بن أبي مسلم سامنا ما لا يرضى الله به والمسلمون ، فقتلناه وأعدنا عاملك)**[21]

وفي هذا ينبغي أن نؤكد بأن الواقع التاريخي يثبت بأن هؤلاء الولاة الذين ذكرت الروايات التاريخية سوء معاملتهم لأهل هذه البلاد لم يفرّقوا بين عرب وبربر في فرض الأمن و النظام ، حتى أن العرب استصرخوا هشام بن عبد الملك لإنقاذهم من بطش عبيدة بن عبد الرحمان والي أفريقية عام110هـ/728م[22]، وفي ذات السياق يذكر الرقيق القيرواني بأن موسى بن نصير كان شديدا على البربر ولكن حينما عادوا للإسلام وحسنوا صدقا فيه ، أوصى بهم طارق بن زياد وكلّفه بتعليمهم القرآن وتفقيههم في الدين [23] ، كما يصف أيضا عبيد الله بن الحبحاب بغير الصورة التي أراد محمود عبد الرازق ترسيخها عنه حيث يقول : (**وكان رئيسا نبيلا ، و أميرا جليلا ، وكاتبا بليغا ، و حافظا لأيام العرب و أشعارها ووقائعها وأخبارها ، وكان يقول الشعر ، وهو الذي بنى الجامع ودار الصناعة بمدينة تونس ..**)[24]، والمقصد ليس من باب تبرئة عبيد الله بن الحبحاب من الأخطاء ولكن الحكم باتزان و بنسبية تقوم على نظرة شاملة وعادلة دون الحكم بالمطلق على الأشياء ، دون أن نهمل ما ذكرته بعض المصادر عنه، فيما عمد إليه ، منذ أن تولى سنة 116هـ / 734 الولاية ، من تغليب لمصالح العرب على حساب البربر وخروجه بذلك عن قواعد الإسلام وما سنّه الولاة الأوائل في معاملة الناس بالعدل ، نصرة للدين الجديد في المغرب كما في الأندلس[25].

فالولاة منذ البداية ، كانوا يفقهون سبيل مجيئهم إلى هذه البلاد ، والذي يقوم أساساً على مبدأ الدعوة للإسلام ، وإن ربطوا به العمل على رفع لواء لغة الضاد ، فلاعتقادهم الشديد لديهم ، أن الإسلام لا يحسن فهمه إلاّ باللغة التي نزل بها ، لذلك أولوها مكانة كبرى ضمن سياسة الفتح ، من باب زيادة الفهم وليس زيادة التعصب ، بل أنها كانت مطلبا من أهل هذه البلاد لأنهم أحبوا الإسلام ، فرأوا بأنهم بحاجة ماسة للعربية التي ستفتح لهم الآفاق واسعة لفهم الإسلام [26]

فسياسة الفتح إذن في مجملها كانت ثمرة لما يريد الإسلام أن يرسّخه في الناس من عدل في المساواة بين البشر، وقد جاءت إشارات الله كثيرة في كتابه العزيز ، وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام ، ومن ذلك قوله جلّ شأنه: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**﴾[27] وجاء في حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- أن النبي عليه الصلاة والسلام **قال: «إن الله لا ينظر إلى أجسامكم، ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم»**[28]، وفي ذلك أيضا روى الإمام أحمد بن حنبل عَنْ أَبِي نَضْرَةَ : « حَدَّثَنِي مَنْ سَمِعَ خُطْبَةَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي وَسَطِ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ فَقَالَ : (**يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ**

وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ إِلَّا بِالتَّقْوَى ، أَبَلَّغْتُ ؟) قَالُوا : بَلَّغَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «[29].

وقد كانت هذه المبادئ في التعامل ، ركائز في سياسة الفتح التي رسّخت منذ البداية مبدأ المساواة بين أهل هذه البلاد وعرب الفتح فكانوا في الجيش سواء وفي الفيء سواء مما كرّس لدى أهل هذه البلاد وضعا جديدا أحسّه أهل هذه البلاد وعايشوه بما لم يألفوه من سياسة الروم الذين لم يجعلوهم إلاّ مواطنين من الدرجة الثانية وهم في أرضهم ، ووجدوا أنفسهم تحت مظلة الإسلام أرفع شأنا من عصور سبقتها[30].

المسألة إذن هي أخطاء وليست سياسة واستراتيجية ، موجهة لأهل هذه البلاد بعينهم وإننا حينما نستقرئ المصادر التاريخية نجد في نفس الفترة قد وقعت وقائع مماثلة في بلاد المشرق والأندلس ، وفي مقابل صورة ولاة أخطئوا، توجد هناك صورة أخرى لولاة أحسنوا السيرة ، وجذبوا لهم أهل هذه البلاد إسلاما وإخلاصا ، ومن هؤلاء محمد بن يزيد (97 .100هـ/ 715 .718م) ، الذي عينه «سليمان بن عبدالملك» ، بعد استشارة فيمن يصلح لولاية إقليم المغرب، فأشار عليه المحيطون به ، بمحمد بن يزيد مولى قريش، لما يتمتع به من صفات الفضل والحزم، فوقع عليه اختيار الخليفة ، ومنحه ولاية «المغرب» وأوصاه بقوله: «يا محمد بن يزيد اتق الله وحده لاشريك له، وقم فيمن وليتك بالحق والعدل. اللهم اشهد عليه»، فعمل «محمد» بهذه الوصية منذ تولى مقاليد البلاد، واستقر بالقيروان، فأقام سياسة العدل بين سكان هذه البلاد، وسار فيهم بأحسن سيرة ، وأثبت بذلك جدارته في حكمه لبلاد المغرب لما يتمتع به من صفات عديدة ، فقد كان حسن السيرة ، رفيقا بالرعية ، لينا في غير ضعف ، وقويا في غير عنف ، فأحبّه البربر وأقبلوا عليه وخضعوا له[31].

ومن هؤلاء أيضا ، إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر[32] والذي عينه الخليفة عمر بن عبد العزيز (99 .101هـ) سنة (100هـ/719م) ، واليا على بلاد المغرب و أمره بإسقاط الجزية على من أسلم منهم وتحرير من استرق من نسائهم ، والاكتفاء بالخمس من الغنائم[33]كما حرص عمر بن عبد العزيز على أن يجمع واليه بين أعباء الإدارة والحرب ، إلى جانب جمع الخراج والصدقات[34] وذلك ليحول دون الجور والاستبداد ، وانعكس كل ذلك على العلاقة بين الوالي وأهل هذه البلاد حيث تقربوا منه وأحبوه ، حتى أن ابن الأثير ذكر بأنه بسبب حسن سيرته أسلم البربر في أيّامه جميعا[35].

وقد استطاع إسماعيل بن عبيد الله أن يحدث بذلك نقلة كبرى في بلاد المغرب ، لا في الناحية الدينية فحسب ، بل وفي العمران ، والزراعة و التجارة أيضا ، فلقد أعطى المغرب اهتمامه من جميع النواحي، خاصة ما تعلق بسياسة الحكمة و العدل في الرعية ، الأمر الذي أدى إلى نشاط في الزراعة وازدهار في التجارة فعمرت الأسواق وازدهرت البلدان ، أما في مجال الدعوة إلى الإسلام ، فقد أعطى اهتماما بالغا للمساجد ، فأسس كثيرا منها ،وأقام فيها الفقهاء للوعظ والارشاد[36] ، وكان بذلك خير أَمِير وَخير وَال وَلبلاد المغرب ، لم يزل حَرِيصًا على دُعَاء البربر إِلَى الْإِسْلَام حَتَّى تمّ إِسْلَامهمْ على يَده وَبث فيهم من فقههم فِي دينهم[37].

وفي ذات الصياغ يوضح (توماس أرنولد) سر اندفاع أهل المغرب إلى الإسلام نافيا أن يكون المسلمون قد اضطهدوا أهل البلاد المفتوحة دينيا فيقول : (لا يصح اعتبار تدهور الكنيسة في بلاد المغرب دليلا على الإكراه ، لأنه يوجد ما يثبت ذلك ، كما أن وجود أهالي مسيحيين حتى نهاية القرن السابع الميلادي في ظل الحكم الإسلامي في بلاد المغرب ، أكبر دليل على انعدام وسائل العنف والاكراه في التحول إلى الإسلام ، بالإضافة إلى أن استمرار وجود أربعين كنيسة بعد الفتح الإسلامي بحوالي ثلاثمائة سنة

يدحض كل فرية على الإسلام وأهله[38].)

الهوامش:

1. انجلو غريلي، أسلمة وتعريب بربر شمال المغرب، منشورات وزارة الثقافة، المغرب، 2009، ص 196،200.

2. يوليوس فلهوزن ، تاريخ الدولة العربية من ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأموية ، تعريب وتعليق : محمد عبد الهادي أبو ريدة ، لجنة النشر والترجمة ، القاهرة ، 1968 ، ص.289.

3. فلهوزن ، المرجع سابق ، ص.289

4- موسى لقبال، مرجع سابق، ص 07.

5- المالكي، **رياض النفوس**، ج.1، ص 37.

6- موسى لقبال، مرجع سابق، ص 78،79.

7- المبروك المنصوري، **الفكر الإسلامي في بلاد المغرب شكله وتطوره و انتشاره**، ط.1، الدار المتوسطية للنشر، تونس، 2011، ص 163.

8- المالكي ، **رياض النفوس**، ج.1، ص51.

9. هي ملكة وقائدة أمازيغية على رأس قبيلة جراوة و لدت و عاشت بجبال الأوراس و استطاعت بدهائها أن توحد حولها أهم القبائل الأمازيغية ، حتى قال فيها ابن عذارى : (جميع من بأفريقيا من الرومان منها خائفون وجميع الأمازيغ لها مطيعون) ، ومن حيث ديانتها قال عنها ابن خلدون : (على أنها كانت وثنية تعبد صنما من خشب، وتنقله على جمل، وقبل كل معركة تبخّره وترقص حوله فسماها العرب الكاهنة) ، واجهت جيوش الإسلام الفاتحة ببسالة و انتصرت عليهم في الكثير من المعارك ، وكانت تصورهم لأتباعها مثل ما أشار ابن عذارى ، بأنهم مثل الرومان جاءوا من أجل خيرات البلاد و استعباد الناس و أنهم لايريدون من بلادنا إلا الذهب والفضة والمعدن، ونحن تكفينا منها المزارع والمراعي، فلا نرى لكم إلا خراب بلاد أفريقية كلها حتى ييأس منها العرب فلا يكون لهم رجوع إليها إلى آخر الدهر ، ولكن سوء فهمها أوردها موارد الهلاك فكان مصيرها الموت على يد جيوش الإسلام الفاتحة التي أظهرت لأهل هذه البلاد بأنها جاءت لهداية القلوب و إخضاعها لله الخالق و حده دون أي عنصر من البشر فانفض من حولها لمّا رأوا أنها معول خراب لهذه البلاد و أن النفع بما جاء به الإسلام و كانت نهايتها على حسان بن النعمان في 2 رمضان سنة 82هـ، وتنتهي فتنتها، ويأمن الناس مسلمهم وبربرهم من شرها. أنظر : (إبن خلدون، **كتاب العبر**، الجزء السابع ص .11 ، الحميري ، **الروض المعطار في خبر الأقطار** ، تحقيق إحسان عباس ، ط.8 ، مؤسسة ناصر للثقافة ، بيروت ، 1980 ، ص.66 ، المالكي ، **رياض النفوس**، ص.10-15 ، ابن عذارى ، مصدر سابق ، ج.1 ، ص.37 ،)

10- موسى لقبال، مرجع سابق، ص 78.

11. سورة الأعراف ، الآية :150

12. هو موسى بن نصير بن عبد الرحمان بن زيد ، ولد سنة 19هـ/640م عيّنه والي مصر عبد العزيز بن مروان قائدا على أفريقية سنة (79هـ) و في عهده اكتمل فتح بلاد المغرب وزاد عليها الأندلس رفقة طارق بن زياد قيل بأنه مات سنة (96هـ) و قيل سنة (98) أنظر : ابن بشكوال،**كتاب الصلة**،ج.2 ، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، 2008م ، ص.499 ، ياقوت الحموي،**معجم البلدان**،ج.3 ، ص.491 ، ابن عذارى ، مصدر سابق، ج.1 ، ص.25 ، 32

13- ابن عذارى ، **البيان المغرب** ، ج.1 ، ص 46. عبد الرحمان الحاج أحمد ، **جماعات الخوارج في بلاد المغرب حتى نهاية القرن الرابع الهجري** ،

رسالة دكتوراه في الآداب ، إشراف علي حسني الخربوطلي ، قسم التاريخ الإسلامي (جامعة عين شمس) ، القاهرة ، 1987 ، ص.91

14- الرقيق القيرواني ، **تاريخ افريقية و المغرب** ، تحقيق: منجي الكعبي ، ط.2 ، الدار العربية للكتاب ، تونس ، 2005 ، ص.123 ، موسى لقبال ، مرجع سابق ، ص 120.

15- ابن عبد الحكم ، مصدر سابق ، ص. 289 / ابن عذارى ، ج.1 ، ص 46. الرقيق القيرواني ، مصدر سابق ، ص.124

16 - الطبري ،**تاريخ الأمم والملوك** ، ج.8 ، ص 167.

17. صابر محمد دياب حسين ، **بلاد المغرب في القرن الأول الهجري** ، مكتبة السلام العالمية ، 1984 ، ص.140. 141 ، ابن عذاري ، المصدر السابق ، ج.1 ، ص.39 وما يلها

18. محمود إسماعيل عبد الرازق ،**الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري** ، ط.2 ، دار الثقافة ، الدار البيضاء ، المغرب ، 1985 ، ص.33

19. محمود إسماعيل ، المرجع سابق ، ص.38

20. صابر محمد دياب حسين ، **بلاد المغرب في القرن الأول الهجري** ، مكتبة السلام العالمية ، 1984 ، ص.140. 141 / ابن عذاري ، لالمصدر السابق ، ج.1 ، ص.39 وما يلها

21 - الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، ج.8 ، ص 167.

22. عبد الرحمان حجازي ، تطور الفكر التربوي الاباضي في الشمال الإفريقي من القرن الأول حتى القرن العاشر الهجري ، أطروحة دكتوراه في الدراسات الإسلامية ، إشراف حسّان حلاّق ، كلية الإمام الأوزاعي للدراسات الإسلامية ، بيروت (لبنان) ، 1998، ص.33

23. الرقيق القيرواني ، مصدر سابق، ص.93

24. الرقيق القيرواني ، المصدر سابق ، ص.133.

25. إبن عذارى، المصدر السابق، ج1، ص38

26. المقري ، نفح الطيب ، ص.238

27. سورة الحجرات ، الآية:13

28. أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم، وخذله، واحتقاره ودمه، وعرضه، وماله (4/1986)، رقم: (2564).

29. الألباني ، الأحاديث الصحيحة ، ج.6 ، ص.199

30. صابر محمد دياب حسين ، مرجع سابق، ص.146. 147

31. أبو العباس السلاوي ، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، ج.1 ، تحقيق : جعفر الناصري ، محمد الناصري ، دار الكتاب ، الدار البيضاء ، المغرب ، ص.156 ، ابن عذارى ، مصدر سابق ، ص.25 ، محمد علي دبوز ، تاريخ المغرب الكبير ، ج.2 ، ص.171

32. **إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر:** تذكر المصادر بأنه كان أميرا باراً و نقياً عادلاً، وكان يشبه جده أبي مهاجر الدينار في الحكمة و الحزم وحسن التدبير، وكان إلى جانب ذلك ورعا تقيا زاهدا ويبذل أقصى جهده لنشر الإسلام بين قبائل البربر هذا أدى إلى انتشار اللغة العربية في بلاد المغرب ولقد تميز الفتح الإسلامي في عهده عن غيره بأنه فتح ثقافي ، وقد اسلم بقية البربر بافريقية على يده وذكر عنه أشهب وابنه نافع عن مالك أن إسماعيل

أوصى أن يتصدق عنه بكل شيء تركه بعد موته.(أنظر السلاوي ، مصدر سابق ، ص.156، 157)

33 - ابن القوطية ، **أخبار مجموعة** ، تحقيق :إبراهيم الأبياري ، دار الكتاب المصري ، دار الكتاب اللبناني ، القاهرة. بيروت. ، ص 23.

34.ابن عبد الحكم ، مصدر سابق ، ص. 287

35 - عزّ الدين ابن الأثير ،**الكامل في التاريخ** ،تحقيق: أبو الفدا عبد الله القاضي ، ج.5 ، ط.1 ، دار الكتب العلمية ، 1987، ج.5 ، ص 23.

36. محمد علي الدبوز ، مرجع سابق ، ج.2 ، ص.183. 185.

37. السلاوي ، مصدر سابق ، ص.157

38 توماس أرنولد ، الدعوة للإسلام ، ترجمة: حسن إبراهيم حسن ، عبد المجيد عابدين ، إسماعيل النحراوي ، ط.3 ، مكتبة النهضة ، القاهرة ، 1970 ، ص.144. 149.

المصادر والمراجع المعتمدة:

أولا: القرءان الكريم

ثانيا:

1 ـ المصادر:

- ابن الأثير عزّ الدين ،**الكامل في التاريخ** ،تحقيق: أبو الفدا عبد الله القاضي ، ج.5 ، ط.1 ، دار الكتب العلمية ، 1987.

.أرنولد توماس، **الدعوة للإسلام** ، ترجمة: حسن إبراهيم حسن ، عبد المجيد عابدين ، إسماعيل النحراوي ، ط.3 ، مكتبة النهضة ، القاهرة ، 1970 .

.ابن بشكوال،**كتاب الصلة** ،طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، 2008م .

.الحميري أبو عبد الله ، **الروض المعطار في خبر الأقطار** ، تحقيق إحسان عباس ، ط.8 ، مؤسسة ناصر للثقافة ، بيروت ، 1980 .

- ابن عبد الحكم ، **فتوح مصر و المغرب** ، تحقيق : عبد المنعم عامر ، لجنة البيان العربي .

.عبد الرحمان بن خلدون ، **كتاب العبر، وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، ط.1 ، دار الكتب العلمية، بيروت (لبنان)، 1992م .

- الرقيق القيرواني ، **تاريخ افريقية و المغرب** ، تحقيق: منجي الكعبي ، ط.2 ، الدار العربية للكتاب ، تونس ، 2005 .

– الطبري ، أبو جعفر ، **تاريخ الرسل والملوك** ، ط.2 ، دار التراث ، بيروت (لبنان) ، 1387هـ.

.أبو العباس السلاوي ، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى** ، ج.1 ، تحقيق : جعفر الناصري ، محمد الناصري ، دار الكتاب ، الدار البيضاء ، المغرب .

- ابن القوطية ، **أخبار مجموعة** ، تحقيق :إبراهيم الأبياري ، دار الكتاب المصري ـ دار الكتاب اللبناني ، القاهرة. بيروت.

- المالكي أبي بكر ، **رياض النفوس في طبقات علماء القيروان و أفريقية** ، تحقيق، حسين مؤنس، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة1951.

- المراكشي ابن عذارى ، **البيان المغرب في أخبار الأندلس و المغرب** ، كولان وليفي بروفنسال ، ط.3 ، دار الثقافة ، بيروت (لبنان) ، 1983.

.مسلم بن حجاج ، **صحيح مسلم**، نظر أبو قتيبة ، ط.1 ، دار طيبة ، 2006.

.المقري أحمد التلمساني ، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، تحقيق: إحسان عبّاس ، دار صادر، 1968 .

.ياقوت الحموي ، **معجم البلدان** ، دارصادر ، بيروت ، لبنان ، 1993.

2 ـ المراجع:

. الحاج أحمد عبد الرحمان ، **جماعات الخوارج في بلاد المغرب حتى نهاية القرن الرابع الهجري** ، رسالة دكتوراه في الآداب ، إشراف علي حسني الخربوطلي ، قسم التاريخ الإسلامي (جامعة عين شمس) ، القاهرة ، 1987 .

. حجازي عبد الرحمان، **تطور الفكر التربوي الاباضي في الشمال الإفريقي من القرن الأول حتى القرن العاشر الهجري** ، أطروحة دكتوراه في الدراسات الإسلامية ، إشراف حسّان حلاّق ، كلية الإمام الأوزاعي للدراسات الإسلامية ، بيروت (لبنان) ، 1998.

. عبد الرازق محمود إسماعيل ،**الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري** ، ط.2 ، دار الثقافة ، الدار البيضاء ، المغرب ، 1985 .

. صابر محمد دياب حسين ، **بلاد المغرب في القرن الأول الهجري** ، مكتبة السلام العالمية ، 1984 .

- غريلي أنجلو، **أسلمة وتعريب بربر شمال المغرب**، منشورات وزارة الثقافة، المغرب، 2009.

. فلهوزن يوليوس، **تاريخ الدولة العربية من ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأموية** ، تعريب وتعليق : محمد عبد الهادي أبو ريدة ، لجنة النشر والترجمة ، القاهرة ، 1968 .

- لقبال موسى، **تاريخ المغرب الإسلامي**، دارهومة، الجزائر، 2002.

- المنصوري المبروك ، **الفكر الإسلامي في بلاد المغرب شكله وتطوره و انتشاره**، ط.1، الدار المتوسطية للنشر، تونس، 2011.